تأكيد المدح بما يشبه الذم

أول من فطن إلى هذا النوع من البديع المعنوي عبد الله بن المعتز، فقد عده في كتاب «البديع» من محاسن الكلام، وسماه «تأكيد مدح بما يشبه الذم» وأورد له مثالين، هما قول النابغة الذبياني:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهنّ فلول من قِراع الكتائب

وقول النابغة الجعدي:

فتى كملت أخلاقه غير أنه جواد فما يبقي من المال باقيا

ومن البلاغيين من يسمي هذا الفن البديعي «الاستثناء» ناظرين إلى أن حسنه المعنوي ناشئ من أثر أداة الاستثناء التي يُبنى عليها، ولكن تسمية ابن المعتز له أدلّ في الواقع عليه من تسميته «بالاستثناء».

وتأكيد المدح بما يشبه الذم ضربان:

١ - أولهما، وهو في الوقت ذاته أفضلهما، أن يستثنى من صفة ذم منفية عن الشيء صفة مدح بتقدير دخولها في صفة الذم.

كقول النابغة الذبياني السابق:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهنّ فلول من قِراع الكتائب (١)

فالنابغة هنا نفى أولاً عن ممدوحيه صفة العيب، ثم عاد فأثبت لهم بالاستثناء عيبًا هو أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب، وهذه ليست في الواقع صفة ذم، وإنما هي صفة مدح أثبتها الشاعر لممدوحيه وأكدها بما يشبه الذم.

وتأكيد المدح في هذا الضرب من وجهين: أحدهما أن التأكيد فيه هو من جهة أنه كدعوى الشيء ببينة وبرهان، كأنه استدل على أنه لا عيب فيه بأن ثبوت عيب لهم معلق بكون فلول السيف عيبًا وهو محال.

والوجه الثاني أن الأصل في مطلق الاستثناء الاتصال بمعنى أن المستثنى يكون داخلاً في المستثنى منه وفردًا من أفراده، وعلى هذا فإذا قيل: «**ولا عيب فيهم غير . . .**» فإن

---

(١) **الفلول**: جمع فل، وهو الثلم يصيب السيف في حده، وقراع الكتائب: مضاربة الجيوش ومقاتلتها عند اللقاء.

السامع يتوهم بمجرد التلفظ بأداة الاستثناء «غير» أو نحوها وقبل النطق بما بعدها أن ما يأتي بعدها وهو المستثنى لا بدّ أن يكون صفة ذم فإذا ولى أداة الاستثناء صفة مدح تبدد توهم السامع بهذه المفاجأة التي لم يكن يتوقعها، لقد توهم أن الذي سيلي أداة الاستثناء لا بدّ أن يكون صفة ذم فإذا به يفاجأ بأنها صفة مدح، ومن هنا يجيء التوكيد لما فيه من المدح على المدح، ومن الإشعار بأن المتكلم لم يجد صفة ذم يستثنيها فاضطر إلى استثناء صفة مدح وتحويل الاستثناء من متصل إلى منقطع.

٢ - والضرب الثاني من تأكيد المدح بما يشبه الذم يتمثل في إثبات صفة مدح لشيء تعقبها أداة استثناء يكون المستثنى بها صفة مدح أخرى له.

ومثال ذلك قول الرسول: «أنا أفصح العرب بيد أني من قريش»، و«بيد» بمعنى «غير» وهي أداة استثناء، وأصل الاستثناء في هذا الضرب أن يكون منقطعًا، ولم يقدر متصلاً لأنه ليس هنا صفة ذم منفية عامة يمكن تقدير دخول صفة المدح فيها.

وإذا لم يكن تقدير الاستثناء متصلاً في هذا الضرب فلا يفيد التوكيد إلا من الوجه الثاني، وهو أن ذكر أداة الاستثناء يوهم إخراج شيء مما قبلها من حيث إن الأصل في مطلق الاستثناء هو الاتصال، فإذا ذكر بعد الأداة صفة مدح أخرى جاء التوكيد.

ومن تأكيد المدح بما يشبه الذم ضرب آخر وهو أن يؤتى بمستثنى فيه معنى المدح معمولاً لفعل فيه معنى الذم، وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا نَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا﴾[الأعراف: ١٢٦] أي وما تعيب منا إلا الإيمان بالله الذي هو أصل المناقب والمفاخر كلها.

فالفعل ﴿نَنقِمُ﴾ فيه معنى العيب والذم، والمستثنى بإلا وهو مصدر الإيمان المؤول من ﴿أَنْ ءَامَنَّا﴾ يتضمن صفة مدح، وهو في الوقت ذاته معمول الفعل ﴿نَنقِمُ﴾ فهذا المثال ونظائره مما تأتي فيه صفة المدح الواقعة بعد أداة الاستثناء معمولاً لفعل فيه معنى الذم - يعد ضربًا آخر من تأكيد المدح بما يشبه الذم.

وفي هذا الأسلوب البديعي قد تأتي أدوات الاستثناء من مثل «إلا، وغير، وسوى» بمعنى «لكن» التي للاستدراك، وعندئذ يكون تأكيد المدح بما يشبه الذم فيها من الضرب الثاني الذي يتمثل في إثبات صفة مدح لشيء تعقبها أداة استثناء يكون المستثنى بها صفة مدح أخرى له. وذلك كقول الشاعر:

هو البحر إلا أنه البحر زاخرًا سوى أنه الضرغام لكنه الوبل

فالممدوح هنا هو البحر، لكنه البحر زاخرًا، لكنه الضرغام لكنه الوبل أي المطر، فقد شبه الممدوح بالبحر وهذه صفة مدح، ثم أكدت هذه الصفة بصفات مدح أخرى، هي: أنه البحر زاخرًا، وأنه الضرغام شجاعة، وأنه الوبل أي المطر غزارة وكل ذلك قد ثبت وتأكد بالاستدراك الذي أزال توهم السامع بالاستثناء لصفات ذم وأحل محلها صفات مدح.

وبعد.... فتجدر الإشارة هنا إلى أن تسمية هذا الفن البديعي «**بتأكيد المدح بما يشبه الذم**» قد نُظر فيها إلى الأعم الأغلب، وإلا فقد يكون ذلك في غير المدح والذم، ويكون من محسنات الكلام كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٢]. يعني إن أمكنكم ما قد سلف فانكحوه فلا يحل لكم غيره وذلك غير الممكن.

والغرض بطبيعة الحال هنا هو المبالغة في تحريم هذا النوع من الزواج وسد الطريق إلى إباحته، ويكن تسمية ما يأتي من هذا القبيل «**بتأكيد الشيء بما يشبه نقيضه**».

وتتمة لما سبق وزيادة في توضيحه نورد فيما يلي بعض أمثلة مما جادت به قرائح الشعراء فيه، فالضرب الأول من تأكيد المدح بما يشبه الذم هو كما عرفنا، أن يستثنى من صفة ذم منفية عن الشيء صفة مدح بتقدير دخولها في صفة الذم، ومن أمثلة ذلك:

١- قول ابي هفّان الشاعر:

ولا عيب فينا غير أن سماحنا أضرَّبنا، والبأس من كل جانب
فأفنى الردى أرواحنا غير ظالم وأفنى الندى أموالنا غير عائب

فقوله: إن السماح والبأس أضرّا بهم ليس بعيب على الحقيقة، ولكنه توكيد مدح، ومما زاد المعنى ملاحة ولطف موقع ما تضمنه من احتراس بديع في قوله: «**غير ظالم وغير عائب**».

٢- وقول ابن الرومي:

ليس له عيب سوى أنه لا تقع العين على شبهه

فجعل انفراده في الدنيا بالحسن دون أن يكون له قرين يؤنسه عيبًا، فهو بذلك يزيد توكيد حسنه.

٣ - وقول حاتم الطائي:

وما تشتكي جارتي غير أنني إذا غاب عنها بعلها لا أزورها
سيبلغها خيري ويرجع أهلها إليها ولم تُقصر على ستورها

٤ - وقول أبي هلال العسكري:

ولا عيب فيه غير أن ذوي الندى خساس إذا قيسوا به ولئام

٥ - وقول الشاعر:

ولا عيب فيكم غير أن ضيوفكم تعاب بنسيان الأحبة والوطن

٦ - وقول صفي الدين الحلي في المعنى السابق:

لا عيب فيهم سوى أن النزيل بهم يسلو عن الأهل والأوطان والحشم

٧ - وقول جمال الدين بن نباتة:

لا عيب فيه سوى العزائم قصَّرت عنها الكواكب وهي بعد تحلق

٨ - وأعظم الشواهد على هذا النوع قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا﴾ [الواقعة :٢٥-٢٦] .

والضرب الثاني من تأكيد المدح بما يشبه الذم يتمثل في إثبات صفة مدح لشيء تعقبها أداة استثناء يكون المستثنى بها صفة مدح أخرى له، ومن أمثلته:

١ - قول النابغة الجعدي:

فتى كملت أخلاقه غير أنه جواد فما يبقي من المال باقيا
فتى كان فيه ما يسر صديقه على أن فيه ما يسيء الأعاديا

٢ - وقول شاعر آخر:

أدافع عن أحسابهم غير أنني وحاشاي يومًا لا أمُنّ عليهمو

٣ - وقول شاعر ثالث:

أطلب المجد دائبًا غير أني في طلابي لا تعرف اليأس نفسي

* * *